

مكانة العلوم الدينية في الحياة الفكرية والثقافية في تيهرت الرستمية

من إعداد الأستاذة
فطيمة مطهري
جامعة أبي بكر بلقايد / تلمسان

مدخل:

يقول ابن خلدون: "أعلم أن العلوم التي يخوض فيه البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلًا وتعليمًا هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عن وضعه، والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية العقلية يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل"¹.

لعل الجو العلمي الذي كان سائدًا في الأسرة الرستمية الحاكمة، أثر في التجاوب الفعلي من طرف أفراد المجتمع التيهرتي خاصة، وبروز فئة من العلماء الأجلاء في مختلف المجالات: العلوم النقلية والعقلية التي حملت مشعل العلم في الأوساط الرستمية خاصة والبلاد الإسلامية عامة.

ومن بين هذه العلوم العلوم النقلية وفي مقدمتها العلوم الدينية من علم التفسير، وعلم الحديث وعلم القراءة وعلم الفقه، وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها"².

إن الأوضاع السياسية والاقتصادية وتواجد عدة مذاهب في المغرب الإسلامي ولا سيما الدولة الرستمية، وتحديدًا حاضرتهم تيهرت وجهود الأئمة الرستميين كانت عوامل بالغة الأثر في جعل العلوم النقلية من حديث وتفسير وفقه تحظى بالنصيب الأوفر من التطور والعناية والاهتمام مقابل العلوم الأخرى، فقد كانت هذه المدينة عامرة بحفاظ الحديث وثقات المحدثين"³.

¹ - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص- 442-443.

² - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة: المصدر نفسه، ص443.

³ - ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1995، ج2، ص8.

وتتميزت تيهرت الرستمية بغزارة الإنتاج في العلوم الشرعية والسبب الرئيس في ذلك هو الاهتمام الكبير لأئمتها فأغلبهم كان قائما بالعلم والتفقه في الدين ساهرا على رعايته ونشره بين رعيته حريصا على طلبه من مصادره غير مضيقين على من خالفهم في الفكر والمذهب، وينطبق هذا الوصف على الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذي جمع بين الفقه والشعر فكانت له حلقات لتدريس الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة وتتلذذ على يديه جمع من العلماء منهم ابنه أبو اليقظان وأبو بكر¹، كما كثر الإنتاج الفقهي أيضا بسبب تعدد المذاهب ومنها المذهب المالكي الذي انتقل إلى تيهرت عن طريق التجارة والحج².

إن وجود هذه المذاهب في تيهرت رفقة كفالة الحرية في الدفاع عنها من طرف الأئمة أنفسهم أدى إلى انتشار أهم مظهر من مظاهر التطور الفكري والتنوع الفكري في تيهرت، ألا وهو المناظرات العلمية، فقد كان علم المناظرة هو أول ما يدرسه الشيخ الإباضي فيكون مضطرا إلى الإمام باللغة العربية والقرآن والتاريخ وعلم الفقه والفلسفة³، ولقد وصف لنا أبو زكرياء بعض المناظرات التي عرفتها تيهرت فقال: "ثم إن الإمام رضي الله عنه أمر بالصفوف فصفت والواصلية قد صفت صفوفها فقد خرج مهدي للمناظرة بين الصفيين ومن معه من أصحابه وجماعة المسلمين فخرج معهم الإمام بوجود أصحابه فخرج الفتى المناظر من المعتزلة ووجوه المعتزلة معه فقال مهدي⁴ لمحمد بن يانس أخرج عليه فناظره فقال له بن يانس فأخرج إليه أنت ولست بأعلم مني، قال خرج المهدي وتقدم إلى الفتى المعتزل وقد كان قبل ذلك أسلمته نفسه وظننت به الظنون فأرسل المهدي في سر من أصحابه يقول له أني إذا ناظرتك وغلبتني أريد أن تستر علي وإن غلبتك سترت عليك وليس فينا أحد يدري من الدائرة على صاحبه

¹ - جمعية التراث: أعلام الإباضية منذ القرن 1هـ إلى العصر الحاضر، مجلد1- 2- 3، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1999، ج1، ص120.
² - جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص98.
³ - محمد علي: الإشعاع الفكري في عهد الأغالية والرستميين خلال القرنين 2-3هـ/8-9م، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الوسيط، جامعة تلمسان، 2007-2008، ص80.
⁴ - قال عنه الشماخي أنه كان شيخا فاضلا فقيها، وكان ممن أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم، ينظر الشماخي: كتاب سير المشائخ، طبعة حجرية، قسنطينة، ج1، ص143، أب وزكرياء: سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979، ص - ص 69-78.

فاتفق المهدي مع أصحابه إذا غلبته ينزع الشاشية عن رأسه ويضعها تحت ركبته¹.

وكانت أهم وأشهر المناظرات التي احتضنتها تيهرت تلك التي دارت بين الإباضية والمعتزلة، إذ تذكر المصادر والمراجع أن علماء الفريقين كانوا يلتقون بوادي مينة²، في حلقات مناظرة تدور حول مواضيع فقهية بالأساس إلى جانب العلوم الأخرى كعلم الكلام واللغة، كما لا شك أن هذه المناظرات كان لها محاسن وآثار إيجابية من حيث أنها أسهمت في ظهور مؤلفات أظهرت جهود العلماء والفقهاء في حركة التأليف اعتبرت ذخيرة علمية وأدبية للمؤسسات العلمية في هذا العصر.

* التفسير

هو من أعظم العلوم الدينية مقدارا، وأرفعها شأنًا ومنارا لكونه رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها³، والتفسير هو شرح كلام الله تعالى ليفهمه من لم يصل ذوقه وإدراكه لفهم اللغة العربية⁴.

لقد كان اهتمام العلماء المسلمين به كثيرا وخاصة بالقرآن الكريم، كونه المصدر الأساسي والأول للتشريع الإسلامي، ونظرا لما ورد من الترغيب فيه من النصوص الشرعية كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁵، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبا من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قسمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله..."، ومن هنا فقد تفرغ بعضهم لتفسيره، قصد تيسير وتسهيل فهمه على العرب، لأن

¹ - أب وزكرياء: نفسه، ص70.

² - ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد الناصر وإبراهيم بحاز، ديوان المطبوعات الجميلة، 1986، ص94.

³ - أحمد محمد الصاوي المالكي: حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، ج1، مطبعة مصطفى محمد مصر، 1934، ص2، عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص-484-486.

⁴ - لخضر عيولي: الحياة الثقافية في المغرب الأوسط في عهد بني زيان (633-962هـ/1236-1554م)، دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة تلمسان، 2004-2005، ص150.

⁵ - سورة الحشر: الآية 21.

نزوله بلغة العرب لا يعني أن كل العرب يفقهون أحكامه ومعانيه ولأن فهم أي كتاب لا يتوقف على اللغة وحدها إنما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب في رقيه¹، وبما أن المجتمع الرستمي كان معظم تركيبته البشرية من الجنس البربري، فقد كان الإحتياج الأكبر إلى فهم ما جاء في القرآن الكريم²، وبحاجة ماسة إلى تفسير بعض الآيات التي شكلت عليهم، وقد تفرغ بعضهم إلى هذا، واهتموا بالتفسير للألفاظ والكلمات وشرح معانيها ومعاني الآيات، وعرفوا بالمفسرين لكتاب الله، وذكر الدرجيني أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن طلب من أهل نفوسة أن يبعثوا له وفدا من علمائهم، يضم من كل صنف من العلوم مائة عالم بما في ذلك التفسير، ليتناظروا مع المعتزلة بتيهرت³.

و لعل أهل نفوسة أرسلوا له مفسرا واحدا، يمكنه أن يحل محل المائة مفسر المطلوبة، وهو محمد بن يانس⁴ الدركلي النفوسي المعروف بـ"ابن أبي المنيب"، عاش ما بين (200-250هـ/815-864م)⁵، وهو أشهر مفسري نفوسة وأعلمهم، ومن أشهر علماء التفسير أيضا:

-لؤاب من سلام التوزري المزاتي: من علماء قبيلة مزاتة، كان شيخا وإماما عالما بالأصول والفروع⁶، وقد قام بتفسير جزء من سورة الشورى⁷ في كتابه "شرائع الدين" باعتماده على الحسن البصري وابن العباس⁸، كما تطرق إلى حكم حجاب المرأة، وفسر الآيات التي تحتويها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ

¹ - أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط11، 1979، ص196.

² - معروف بلحاج: الإنتاج الفكري في عهد الدولة الرستمية، مجلة القضاء المغاربي، العدد2، مجلة دورية يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، وأعلامها في المغرب العربي، كلية أب وبكر بلقايد، تلمسان، أفريل 2004، ص242، مختار حساتي: المرجع السابق، ص307.

³ - الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق وطبع إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974، ج1، ص57.

⁴ - أب وزكرياء: المصدر السابق، ص67.

⁵ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص828، إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2، جمعية التراث، القرارة، غرداية، 1993، ص299.

⁶ - جمعية التراث: المرجع نفسه، ج4، ص733.

⁷ - قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا الَّذِي أُوحِينا إِلَيْكَ﴾، الآية 13.

⁸ - معروف بلحاج: المرجع السابق، ص143، إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص299.

الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴿١﴾ وليس في تفسيره أي غموض أو ابهام.

- هود بن محكم الهواري: كان أبوه محكم الهواري قاضي تيهرت في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب (208-258هـ/823-871م)²، وهو أشهر مفسر عرفته الدولة الرستمية وتداولته المصادر والمراجع الإباضية وغير الإباضية.

تلقى هود بن محكم تعليمه في تيهرت وكان يفسر القرآن الكريم بالمأثور من الأقوال، وقد اتبع في ذلك شروطا ثمانية هي: معرفة المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ، التقديم والتأخير، المقطوع والموصول والخاص والعام والإضمار واللغة العربية³، ألف كتابا في التفسير فيه أربعة أجزاء⁴، ويعتبر تفسيره مرجعا أساسيا للإباضية بالإضافة إلى الأحاديث النبوية⁵.

* الفقه:

الفقه لغة هو الفهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا غَفُورًا﴾⁶، أي لا تفهمون، وقيل الفقه هو معرفة الأشياء الدقيقة، واصطلاحا هو معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد⁷، وعرفه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: "هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين"⁸.

¹ - سورة الأحزاب: الآية 59.

² - محمد مختار اسكندر: المفسرون الجزائريون عبد التاريخ، ج1، دحلب للنشر، الجزائر، د.ت، ص40، موسى لقبال: دور كتامة، المرجع السابق، ص77.

³ - محمد مختار اسكندر: نفسه، ص41.

⁴ - هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز 4 أجزاء، تحقيق شريفي بلحاج، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، ويذكر الشيخ سليمان داود بن يوسف أنه رغم ضياع كتب الإباضية فإبني وجدت نسخة كاملة من هذا الكتاب في خزانة جدي الشيخ أحمد ابن أيوب التجينتي، كتبه بخطه سنة 1050هـ، وه وبصدد التقديم للطبع، وقد وجدت بعض الأجزاء من الكتاب متفرقة في وادي مزاب وجربة، ينظر، سليمان داود بن يوسف: حلقات من تاريخ المغرب، المرجع السابق، ص60.

⁵ - صالح باجاية: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، الطبعة الأولى، الجامعة التونسية، الزيتونة للشريعة وأصول الدين، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1976، ص54.

⁶ - سورة الإسراء: الآية 44.

⁷ - أحمد بن زكريا التلمساني: غاية المرام في شرح مقدمة الإمام، تحقيق محند أ وإبير مشنان، المجلد الأول، ط1، دار التراث، دار ابن حزم، الجزائر، 2005، ص- ص 281-282.

⁸ - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص443.

يعتبر هذا العلم في نظر الإسلام جزء من الدين ومن أمور الدنيا، حيث يتناول الفقه حياة الإنسان كلها من الصغر إلى آخر مراسم الدفن وهو إذن قواعد عملية نتيجة التطور واختلاف البيئات، ولعل الخطوات الأولى للفقه الإسلامي وضعت وقت الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وذلك قبل الإنقسامات السياسية والخلافات العقائدية¹، ولقد كان التنافس على أشده بين المذاهب الإسلامية داخل العاصمة، وعلى شكل مناظرات بين الإباضية والمالكية والحنفية والمعتزلة والصفورية، هذا الجو التنافسي أثر في توجيه اهتمام العديد من العلماء إلى هذا العلم.

إن التنافس بين الفقهاء على اختلاف مذاهبهم أفضى إلى غزارة التأليف، فكثر بذلك المدونات الفقهية، ولا أدل على ذلك ما قاله ابن الصغير: "...و من بالبلد من فقهاء الإباضية وغيرهم من الكوفيين والمدنيين (أي المالكية) لم يطلب بعضهم بعضاً، ولا يسعى بعضهم ببعض..إلا أن الفقهاء تباحثت المسائل فيما بينها، وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خالفها فيها صاحبها..."².

و الجدير بالذكر أن الحلقات العلمية والمناظرات التي كانت تقام في تيهرت بإشراف الأئمة الرسميين عليها في بعض الأحيان كان لها دور فعال في إثراء الفقه كانت حلقات الجدل والمناظرة تعقد بين فقهاء المالكية والإباضية، يورد بحاز إبراهيم جانباً من مناظرة فقهية بين ابن الصغير المالكي وأبي الربيع الإباضي حول تفسير الآية ﴿وَاللَّائِي يَكْسَنُ مِنَ الْمَحِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾³، فابن الصغير فسر "لم" بأنها لا تعني النفي القاطع إنما تنطبق على الفتيات الصغيرات اللاتي لن يبلغن سن الحيض، بينما أبو الربيع فسرهما على أنها تعني النساء المسنات⁴. كذلك الأمر بين فقهاء الحنفية والإباضية، حيث يتفق المذهب الإباضي والمذهب الحنفي على الكتاب والسنة والقياس والإجماع والإختلاف هو

¹ - صالح باجية: المرجع السابق، ص 53.

² - ابن الصغير: المصدر السابق، ص 117.

³ - سورة الطلاق: الآية 5.

⁴ - بحاز إبراهيم: المرجع السابق، ص 300، ابن الصغير: المصدر السابق، ص - ص 117 - 118.

أن الإباضيين يأخذون بقتاوى الصحابة والتابعين، أما الأحناف فلا يأخذون إلا بقتاوى الصحابة¹.

كما أن الفقه الإباضي² تميز بالتشدد وهو ما كان عليه شيوخ المذهب الأوائل، والدافع إلى ذلك هو الرغبة في زيادة الأجر والحيطة من الوقوع في الحرام، إذ يذكر أن أبا مرداس رأى على غير قصد امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة كفارة على ذلك³، ومن بين الأحكام الفقهية التي يتميز بها المذهب الإباضي عن سائر المذاهب الأخرى، سواء السنية أو الشيعية، فمثلا في نطاق العبادات وما يتصل بها: تعتبر الصلاة بدون البسمة قبل الفاتحة باطلة، وكذلك الأذان بدون أربع تكبيرات إحرام، وما تتميز به صلاتهم أن كل ركعة سرية يكتفي فيها بالفاتحة، والأفضل عند الصلاة أفراد لباس خاص بها تبريا من نجاسة قد تعلق بالثوب، أما في مسألة الصيام، فمن أصبح جنبا أصبح مفطرا (إذا كان عمدا كان عليه القضاء والكفارة)، وفي نطاق المحرمات: من زنى بامرأة فلا يجوز له الزواج بها، وكذلك التدخين، ولعب الشطرنج والغناء والموسيقى، وحلق اللحية، والصيد والذبيحة على يد اليهود، وبناء القبور على الموتى⁴.

إن الاجتهاد الفقهي في المغرب خاصة بالنسبة للمذهب الإباضي بدأت معالمه تظهر بشكل جلي ونهائي، مع ظهور عدد كبير من الشيوخ والفقهاء، الذين كانوا قد خدموا الفقه في المغرب الأوسط وساهموا في تنشيط الحياة الفقهية في الدولة الرستمية⁵ سواء كانوا إباضيين أو غير إباضيين، نذكر منهم:

• الفقهاء الإباضيون:

كان الأئمة الرستميون أنفسهم علماء وفقهاء ومنهم الإمام عبد الوهاب الذي ألف كتابا في الفقه الإباضي سماه نوازل نفوسة⁶، جاءت

¹ - عبد الكريم جودت: العلاقات، المرجع السابق، ص96، محمد أب وزهرة: المرجع السابق، ص269.

² - للإباضية آراء فقهية جيدة اقتبست القوانين المصرية في المواريث بعض آرائهم، محمد أب وزهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد، ج1، دار الفكر العربي، ص85.

³ - صالح باجيرة: المرجع السابق، ص66.

⁴ - عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ، ما قبل التاريخ إلى 1962، مراجعة عبد العزيز ب وشعيرات، ج1، دار المعرفة، الجزائر، ص99.

⁵ - رايح بونار: المغرب العربي، تاريخه وحضارته، ط3، دار الهدى، عين ميله، الجزائر، د.ت، ص85.

⁶ - حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ج1، ط1، دار الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1996، ص332، ابن الصغير: المصدر

في حوالي ثلاثة مائة سؤال يجيب فيها عن أسئلة النفوسيين¹، كما ألف الإمام أفلح بن عبد الوهاب كتاب الجوابات التي بحث فيها عن أسئلة فقهية، وما زال هذا الكتاب عبارة عن مخطوط يشمل ثمانين ورقة ويحتاج إلى التحقيق².

ومن بين العلماء والفقهاء من غير البيت الرستمي والذين أسهموا في ازدهار الحياة الفكرية نذكر منهم:

- أبو عبيدة الأعرج: عاش في القرن 3هـ/9م، وعاصر الإمام أبا اليقظان، كان عالما بالفقه³ وعلم الكلام والبلاغة والنحو، قال عنه ابن الصغير: "كلهم مقرون له بالفضل، معترفون له بالعلم، مسلمون له في الورع إذ اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه"⁴، ومما ذكر عن خصاله قلة تردده على الأمراء وحسن أدبه⁵، وابن الصغير كان أحد تلامذته، كان مشهودا له بالورع حتى أن إياضية سجلماسة يبعثون إليه زكاتهم ليصرفها حيث يشاء⁶، ولقد احتضنت تاهرت فقهاء آخرين تمتعوا بنفس المكان الفقهية، ونذكر منهم:

- عبد العزيز بن الأوز: عاش في تيهرت في عهد الإمام أفلح والإمام أبي اليقظان، وكان فقيها بارزا رغم أن بالبعض أخذ عليه فكره السطحي، ويقول عنه ابن الصغير أنه كان صاحب فقه ورحلة نحو المشرق⁷.

- عبد الله بن الخير: وتلمذ عل يد أبان بن وسيم، ولغزارة فقهه برز في الإفتاء⁸، اشتهر بعلمه وقيل عنه من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل الخير⁹، ونبغ أيضا في الفقه عيسى بن فرناس

السابق، ص36، ويذكر محمد علي ديبوز بأن هذا الكتاب لا زال موجودا في مدن ميزاب وجبل نفوسة وجربة، محمد علي ديبوز: المغرب الكبير، المرجع السابق، ج3، ص- ص 272-273.

¹ - ابن الصغير: نفسه، ص45.

² - بلحاج معروف: المرجع السابق، ص244.

³ - وداد القاضي: ابن الصغير، مجلة الأصاله، الملتقى 11 للفكر الإسلامي بوارجلان، العدد45، قسنطينة، 1977، م1، ص233.

⁴ - ابن الصغير: المصدر السابق، ص84.

⁵ - وقال عنه ابن الصغير: "وكان قليل الدخول على أبي اليقظان، ولم يكن يجمعه وإياه سوى المسجد الجامع"، ابن الصغير، المصدر نفسه، ص83.

⁶ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص596.

⁷ - قال عنه ابن الصغير: "وكان له فقه بارع وله رحلة نح والشرق، ولكنه سفيه اللسان خفيف العقل، ينزهون مجالسهم عن حضوره، ويستغنون عنه في معضلات مسائلهم"، ابن الصغير: المصدر السابق، ص86.

⁸ - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، المرجع السابق، ص- ص 318-319.

⁹ - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص179.

النفوسي وأبو ربيع سليمان وعثمان بن أحمد بن يحتاج وأبو ميمون الجيلاطي¹.

كما لا ننسى جهود حملة العلم الفقهية، أمثال اسماعيل بن درار الغدامسي الذي أدى دورا هاما في التعليم، ونشر الفقه الإباضي، وأيضا داورد القبلي النفزاوي الذي أخذ عنه الإمام عبد الوهاب العلم²، ولم تكن تبهرت وحدها المدينة الرسمية التي كانت تحتضن الفقهاء، فقد ظهر أيضا في جبل نفوسة عدد من الفقهاء، ورأينا أن نذكر ولو البعض منهم لأن الأئمة الرستميين استعانوا بهم في المناظرات وفي القضاء ومن أشهر هؤلاء العلماء والفقهاء:

- **عمروس بن فتح المساكني النفوسي**: عاش في عهد الإمام أبي حاتم يوسف بن محمد بن أفلح، تولى القضاء بجبل نفوسة، قام باستتساخ مدونة أبي غانم³ التي لها أهمية في الفقه الإباضي حيث يعتمد عليها بعد القرآن والسنة، ومسند الربيع مثل مدونة أبي سحنون من أهمية عند المالكية⁴، وكان من الفقهاء الذين قتلوا في موقعة مانوا سنة 283هـ/896م، حيث أخذ أسرا إلى الأمير الأغلب إبراهيم الثاني ثم قتل بطريقة بشعة⁵.

- **عيسى بن فرناس ومحمود بن بكر**: استعان بهما الإمام أبو اليقظان في أمور الدين والسياسة⁶، حيث يذكر ابن الصغير: "وكان إذا جلس (أبو اليقظان) في المسجد الجامع... كان يقابله نصب عينيه رجل من نفوسة يعرف بعيسى بن فرناس، وكان عندهم من الورع بمكان... وكان عن يمينه وعن يساره وبين يديه وجود الناس، وكان محمود بن بكر يدافع عن الإباضية ويرد عن الفرق الأخرى بمقالاته ويؤلف الكتب في الرد على مخالفه⁷."

¹ - ابن الصغير: المصدر السابق، ص- ص 81-110.

² - بلحاج معروف: الانتاج الفكري، المرجع السابق، ص245، جمعية التراث: المرجع السابق، ص- ص 109-2856-499-505-515.

³ - ويذكرني هذا السياق أن أبا غانم بشر بن غانم الخرساني خرج من المشرق متوجها نحو المغرب قاصدا الإمام عبد الوهاب ومعه مدونته، وأثناء مروره بجبل نفوسة استودعها عند عمروس بن فتح الذي عكف هـ وولخته على استنساخها، ينظر، حبيب الجنحاني: دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1990، ص105.

⁴ - عمار عمورة: المرجع السابق، ص99.

⁵ - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص89.

⁶ - ابن الصغير: المصدر السابق، ص81.

⁷ - يقول إبراهيم بحاز: "لم تصل إلينا هذه الكتب التي رد بها محمود بن بكر عن مخالفه الإباضية ولعلها ذهبت ضحية حرق مكتبة الرستميين"، إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، المرجع السابق، ص- ص 310-311، ابن الصغير: نفسه، ص نفسها.

-محكم الهواري: عينه الإمام أفلح بن عبد الوهاب قاضيا على تيهرت، قيل أنه كان شديدا في الحق، فلم يفرق بين أمير ومأمور وبين حاكم ورعية، لهذا ارتضاه الناس قاضيا يحكم بينهم بالعدل¹، وكان حيا فيما بين 208-258هـ/823-871م².

-عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ: محمد بن أفلح فقيه من تيهرت، عاصر الإمامين أبي اليقظان وأبي حاتم يوسف الذي عينه قاضيا، وقد كان متطلعا في الفقه³، ومجموعة أخرى من العلماء والفقهاء أمثال ابن أبي عياض اللواتي الذي عاش في القرن 3هـ بين عهدي أبي حاتم يوسف ويعقوب بن أفلح⁴، وأبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي الذي كان يستغل بالتدريس في الفقه واللغة بجبل نفوسة⁵، وماغوس بن هارون المتوفي 283هـ/896م، له كتاب يسمى "كتاب ماغوس"⁶، وأبو حسان عامر بن عاصم السدراتي وهو من ذرية عاصم السدراتي، كان يعقد مجلسين، مجلس للقضاء وآخر للنساء، يعلمهن الأحكام ويفقهن في دينهن⁷، ومن فقهاء وخطباء تيهرت أيضا: أحمد التيه الذي برز في فن المناظرة، وعثمان بن القفار وأحمد بن منصور، وقد عاصروا الإمام أبا حاتم يوسف بن أبي اليقظان⁸، وغيرهم كثير.

و ما نستنتج من خلال عرض لهؤلاء العلماء والفقهاء مكانتهم الكبيرة عند الأئمة الرستميين، الشيء الذي دفعهم إلى تعيين هؤلاء الفقهاء في منصب القضاء باعتباره جهازا إداريا له علاقة وطيدة بالفقه لأن إصدار الأحكام القضائية يجب أن يتطابق مع الأحكام الفقهية الشرعية، لا سيما إذا علمنا أن من شروط تولي مهمة القضاء، هو أن يكون المؤهل له درجة عالية من الفقه والفتوى، ولعل أشهر قاض

1 - ابن الصغير: نفسه، ص- ص 59-60.

2 - جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص- ص 745-746.

3 - ابن الصغير: المصدر السابق، ص89، محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص178، سليمان الباروني: المرجع السابق، ج2، ص86.

4 - جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص675، محمد علي: المرجع السابق، ص87.

5 - يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج1(الجزائر القديمة والوسطية)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 1995، ص121.

6 - جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص738.

7 - جمعية التراث: المرجع السابق، ص- ص 244-245.

8 - ابراهيم بحاز: الدولة الرستمية، المرجع السابق، ص266.

شهدته الدولة الرستمية هو عمرو بن فتح النفوسي، الذي وصف بالبحر الزاخر، ولعل أبرز تصنيف يعرف باسم العمروسي¹.

• الفقهاء غير الإباضيين:

لم يقتصر الإنتاج الفقهي للمذهب الإباضي فحسب بل فتح المجال لمختلف العلماء والفقهاء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية مما مكن من وجود تعايش مذهبي جعل من تيهرت رمزا لما يمكن أن نسميه "حوارا مذهبيا" إلا ما كان يعترض هذا التعايش من تصادم بين الإباضية والمعتزلة الواسلية وأسبابه في غالب الأحيان النزعة القبلية²، فقد فتحت تيهرت أبوابها أمام الوافدين إليها من كل حذب وصوب دون تضيق أو تعصب وكان من الطبيعي أن يتواجد عدد من الفقهاء غير الإباضيين خاصة فقهاء المالكية، نذكر منهم: أبو الفضل عباس بن محمد العواف الغدامسي المتوفي سنة 309هـ/921م³، وإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي، سمع من أبي علي القالي، توفي 307هـ/919م⁴، وكذلك الفضل بن سالم البجائي المتوفي 319هـ/931م، كان له باع كبير في الفقه من تأليفه "جامع المسائل الموازنة والمستخرجة"⁵، وأيضا قاسم بن عبد الرحمن وزكرياء بن بكر والمؤرخ الفقيه المالكي بن الصغير⁶، كما كان للفقهاء الحنفية قدم راسخة في تيهرت بدليل وجود مسجد خاص بهم وكان يطلق عليهم تسمية الكوفيين⁷، ومنهم أبو مسعود وأبو دنون وكانا فقيهين على مذهب الكوفيين⁸، وقد كان لهذين الفقيهين طلع بارز في إحداث المنافسات التي وقعت بين الإمام أبي حاتم وعمه يعقوب بن أفلح في سنوات 282هـ/286م⁹.

¹ - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص320.

² - محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط3، 1987، ص120.

³ - بلحاج معروف: الانتاج الفكري، المرجع السابق، ص246.

⁴ - رابح بونار: المرجع السابق، ص92.

⁵ - نفسه، ص93.

⁶ - محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص237.

⁷ - جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص95، ابن الصغير: المصدر السابق، ص36.

⁸ - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص180.

⁹ - ابن الصغير: المصدر السابق، ص134.

شهدته الدولة الرستمية هو عمرو بن فتح النفوسي، الذي وصف بالبحر الزاخر، ولعل أبرز تصنيف يعرف باسم العمروسي¹.

• الفقهاء غير الإباضيين:

لم يقتصر الإنتاج الفقهي للمذهب الإباضي فحسب بل فتح المجال لمختلف العلماء والفقهاء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية مما مكن من وجود تعايش مذهبي جعل من تيهرت رمزا لما يمكن أن نسميه "حوارا مذهبيا" إلا ما كان يعترض هذا التعايش من تصادم بين الإباضية والمعتزلة الواصلية وأسبابه في غالب الأحيان النزعة القبلية²، فقد فتحت تيهرت أبوابها أمام الوافدين إليها من كل حذب وصوب دون تضييق أو تعصب وكان من الطبيعي أن يتواجد عدد من الفقهاء غير الإباضيين خاصة فقهاء المالكية، نذكر منهم: أبو الفضل عباس بن محمد العواف الغدامسي المتوفي سنة 309هـ/921م³، وإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي، سمع من أبي علي القالي، توفي 307هـ/919م⁴، وكذلك الفضل بن سالم البجائي المتوفي 319هـ/931م، كان له باع كبير في الفقه من تأليفه "جامع المسائل الموازنة والمستخرجة"⁵، وأيضا قاسم بن عبد الرحمن وزكرياء بن بكر والمؤرخ الفقيه المالكي بن الصغير⁶، كما كان للفقهاء الحنفية قدم راسخة في تيرهت بدليل وجود مسجد خاص بهم وكان يطلق عليهم تسمية الكوفيين⁷، ومنهم أبو مسعود وأبو دنون وكانا فقيهين على مذهب الكوفيين⁸، وقد كان لهذين الفقيهين طلع بارز في إحداث المنافسات التي وقعت بين الإمام أبي حاتم وعمه يعقوب بن أفلح في سنوات 282هـ/286م⁹.

¹ - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص320.

² - محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط3، 1987، ص120.

³ - بلحاج معروف: الانتاج الفكري، المرجع السابق، ص246.

⁴ - رابح بونار: المرجع السابق، ص92.

⁵ - نفسه، ص93.

⁶ - محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص237.

⁷ - جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص95، ابن الصغير: المصدر السابق، ص36.

⁸ - الدرجيني: المصدر السابق، ج1، ص180.

⁹ - ابن الصغير: المصدر السابق، ص134.

طريقه وأخذ عنه الديوان الذي جمع فيه أحاديث تسعين من الصحابة، وحوى ما عندهم وقام بحفر له ودفنه ولم يعرف وضعه إلى يومنا هذا، كله حسد وغيلة¹، ولعل هذه الحادثة من حوادث الدهر آنذاك.

و يبدووا هذا الفراغ في مصنفات الحديث لعلماء إباضيين، هو الذي دعى أبا عبيدة الأعرج التيهري، العالم الفقيه بالكلام والوثائق والنحو واللغة، إلى دراسة كتب غير الإباضية التي كانت من مخلفات العديد من رواة الحديث، نذكر منهم أبا عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن اسماعيل الوناتي التيهري² الذي يعد من أشهر علماء الجزائر وأدبائها في هذا العصر عالما بالحديث، إماما، صدوقا، حافظا للحديث³، ولد بتيهري عام 200هـ، أخذ العلم عن علماء بلده، ثم ارتحل إلى القيروان، فأخذ عن صاحب المدونة سحنون بن سعيد، وقد أخذ الحديث عن بكر العديد من العلماء أمثال قاسم بن إصبع والذي نقل مسند مسدد بن سرهد إلى الأندلس، وهو في عشرة أجزاء⁴، وأيضا ولده عبد الرحمن⁵، وكذا صالح القحطاني المعافري، وقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التيهري التميمي الذي كان من جلساء بكر بن حماد⁶.

و من المحدثين أيضا أبو سعيد بحيج بن خدّاش توزري، توفي بنفزاوة سنة 296هـ/909م، وقد روى الحديث عن محمد بن سحنون⁷، ويظهر أن معظم هؤلاء المحدثين كانوا قد رحلوا إلى القيروان لتلقي العلم من شيوخها، والمؤلفات في هذا الباب شبه معدومة إلا ما كان قد استعين به في التفسير، وهي طريقة هود محكم⁸، السالف الذكر ويذكر أن نفّاثا بن نصر قد أتى معه بنسخة من ديوان جابر بن زيد الأزدي من بغداد، وهو مؤلف يعتقد أنه في الحديث⁹، لما كان يسمعه جابر عن

¹ - أب وزكرياء: المصدر السابق، ص96.

² - ذكره الدباغ باسم بن سمك وابن عذارى باسم بن سمر، ينظر، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أصل القيروان، ج1، تحقيق، محمد ماضور، ومحمد الأحمدى أب والنور، مكتبة الخاتجي، مصر، المكتبة العتيقة: ص281، ابن عذارى: المصدر السابق، ص103.

³ - ابن عذارى: المصدر السابق، صج1، ص153، مختار حساني: المرجع السابق، ص308.

⁴ - جودت عبد الكريم: الأوضاح الاقتصادية، ص174.

⁵ - إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، المرجع السابق، ص309.

⁶ - بلحاج معروف: الانتاج الفكري، المرجع السابق، ص244.

⁷ - معروف بلحاج: الانتاج الفكري، المرجع السابق، ص244.

⁸ - بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية، المرجع السابق، ص301.

⁹ - نفسه، ص- ص 305-306.

الصحابة منهم بن عباس، يذكر الدرجيني أن مدونة أبي غانم احتوت على جملة من الأحاديث¹.
*علم القراءات:

لم تشر المصادر التي رجعنا إليها في التأليف في هذا العلم رغم وجود أئمة جودوا ورتلوا القرآن في المساجد طبقاً لما جاء في الآيات الكريمة والتي تحت على الترتيل مثل قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾²، وكذا قوله عز وجل: ﴿وَرَتِّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾³، وهذا ما ذكره ابن الصغير⁴: "حضرت لهم خطبا كثيرة أولهم ابن أبي دريس، والثاني أحمد النيه والثالث أبو العباس بن فتحون، والرابع عثمان بن الصفار، والخامس أحمد بن منصور، فسمعت أحمد النيه يقرأ بعد فراغ إلى بلغ: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾⁵، فقد كان هؤلاء الخطباء يؤمون الناس في الصلاة ومن ثم كان عليهم تجويد القرآن وترتيله بأحكامه لأنها فرض عين.

الخاتمة:

إن الإنتاج الفكري الإباضي لا سيما الفقه منه لم ينته بعد انتهاء دولتهم وسقوط تيهرت بل استمر في واحات وارجلان وسدراتة وجربة، إذ نزع يعقوب بن أفلح إلى وارجلان عقب مقتل يوسف أبو يقطان، هذه المناطق كانت في الحقيقة معازل لانطلاقة جديدة للفكر الإباضي بعد سقوط تيهرت فقد أنجبت هذه المدن علماء وفقهاء مثلوا استمرارية فكرية ومذهبية للدولة الرستمية وعرفوا بقوة الإستماتة في الدفاع عن مذهبهم، إذ عاش العديد من أئمة الفكر الإباضي خلال القرن الرابع والخامس الهجريين حتى يومنا هذا ومن هؤلاء الفقهاء نذكر منهم: أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي المتوفى سنة 570هـ/1174م، سعيد بن زنجيل (أبو نوح) أوائل القرن 4هـ/10م، أبو عبد الله محمد بن بكر الذي تتلمذ على يدي أبي نوح سعيد بن زنجيل وقد أشاد بنبوغه في الفقه، رحل إلى القيروان لتعلم علوم اللغة العربية.

¹ - الدرجيني: المصدر السابق، ص10.

² - سورة المزمل: الآية4.

³ - سورة الفرقان: الآية32.

⁴ - ابن الصغير: المصدر السابق، 105.

⁵ - سورة طه: الآية4.

إن جهود هؤلاء العلماء والفقهاء في الحفاظ على المذهب الإباضي عملت على التواصل الفكري عبد العصور هو الأمر الذي أدى إلى استمرارية هذا المذهب حتى يومنا هذا إضافة إلى صفة الاعتدال التي لزمتم هذا المذهب منذ نشأته وهي في الحقيقة من عناصر قوته وعوامل انتشاره وبقائه على غرار المذاهب الأخرى التي ظهرت في المغرب ثم سرعان ما اندثرت بسبب جنوحها إلى القوة والإكراه. و يلاحظ كذلك وجود علماء أجلاء ينسبون إلى القبائل الأمازيغية مثل قبيلة بني يفرن، مما يؤكد على أن الأمازيغ اهتموا بعلوم الشريعة منذ القرون الأولى، لكن أغلب مؤلفات علماء تيهرت لا تزال مخطوطة بخزائن وادي ميزاب، نذكر منها على سبيل المثال جوابات الإمام أفلح ورسالة أبي عبيدة في الزكاة وديوان أبي سهل.

قائمة المصادر والمراجع *المصادر:

- * القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم)
ابن أبي عذاري المراكشي (أبو الحسن أحمد كان حيا سنة 712هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج1، دار الثقافة، بيروت، الطبعة 2، 1980.
ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد الناصر وإبراهيم بحاز، ديوان المطبوعات الجميلة، 1986.
أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر): سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979.
أحمد بن زكريا التلمساني: غاية المرام في شرح مقدمة الإمام، تحقيق محند أو إدير مشنان، المجلد الأول، ط1، دار التراث، دار ابن حزم، الجزائر، 2005.
الحموي (ياقوت شهاب الدين أحمد أبو عبد الله محمد): معجم البلدان، ج1، ج2، ج3، دار صادر بيروت، 1995.
الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري): معالم الإيمان في معرفة أصل القبروان، ج1، تحقيق، محمد ماضور، ومحمد الأحمدى أبو النور، مكتبة الخانجي، مصر، المكتبة العتيقة.
الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد): طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق وطبع إبراهيم طلابي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974.
الشماعي (أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد): كتاب سير المشائخ، طبعة حجرية، قسنطينة، ج1، ج2.
النديم (أبو الفرغ محمد): الفهرست، ضبط وشرح يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996.

- *المراجع والدوريات والرسائل الجامعية:
- إبراهيم يحاز بكير: الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2، جمعية التراث، القرارة، غرداية، 1993.
- أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط11، 1979.
- جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3-4هـ/9-10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ج1، ط1، دار الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1996.
- رابح يونا: المغرب العربي، تاريخه وحضارته، ط3، دار الهدى، عين ميلة، الجزائر، د.ت.
- محمد علي دبور: تاريخ المغرب الكبير، ج3، دار إحياء الكتب العربية، سوريا، 1963.
- صالح باجبة: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، الطبعة الأولى، الجامعة التونسية، الزيتونة للشريعة وأصول الدين، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1976.
- محمد المختار سكندر: المفسرون الجزائريون عبد التاريخ، ج1، دحلب للنشر، الجزائر، د.ت.
- محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط3، 1987.
- يحيى بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، ج1 (الجزائر القديمة والوسيط)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، وهران، الجزائر، 1995.
- لخضر عبدلي: الحياة الثقافية في المغرب الأوسط في عهد بني زيان (633-962هـ/1236-1554م)، دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة تلمسان، 2004-2005.
- محمد عليلي: الإشعاع الفكري في عهد الأغلبية والرستمين خلال القرنين 2-3هـ/8-9م، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الوسيط، جامعة تلمسان، 2007-2008.
- معروف بلحاج: العمارة الدينية الإباضية بوادي ميزاب، أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ العمارة الإسلامية، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2002.
- وداد القاضي: ابن الصغير، مجلة الأصالة، الملتقى 11 للفكر الإسلامي بوارجلان، العدد 45، قسنطينة، 1977.
- جمعية التراث: أعلام الإباضية منذ القرن 1هـ إلى العصر الحاضر، مجلد 1-2-3، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1999.